الفصل الثالث

واقع العالم الإسلامي في عصر الحروب الصليبية

أولاً: الأحوال السياسية والدينية في العالم الإسلامي

كان العالم الإسلامي في تلك الآونة فترة الحروب الصليبية التي شنتها أوربا على الشرق الإسلامي يعيش ظروفاً، أبسط ما توصف به أنها ظروف اضطراب أدى إليه الانقسام والفرقة التي كانت واضحة لكل ذي عين.

وإذا كان الأصل في العالم الإسلامي أن يكون أمة واحدة. وقيادة واحدة فإنه كان في تلك الآونة بالذات أكثر ما يكون انقساماً في القيادة وفرقة الاتجاه.

فالخلافة العباسية في بغداد تقلص نفوذها، وطمع فيها قوادها وأمراؤها، بل استبدوا بها حتى أصبح الخليفة صورة لا حقيقية، وأصبحت الخلافة شكلاً لا جوهراً.

والحق أن الخلافة العباسية كانت مظهراً لوحدة المسلمين وقوتهم أكثر من قرنين من الزمان، بلغ فيهما المسلمون شأواً بعيداً، ثم بعد ذلك بدأ الضعف يدب في الخلافة وكان أن انقسمت إلى دول صغيرة وكان العالم الإسلامي في ذلك الزمان يعاني من الفرقة والانقسام وتقسمه المغامرين من القواد والأمراء ويمكن أن نستبين في العالم الإسلامي آنذاك ثلاثة من الظواهر تعكس لنا حال العالم الإسلامي الديني والثقافي، وقد استقرئ حال العالم الإسلامي آنذاك الدكتور علي عبد الحليم محمود في كتابه الغزو الصليبي والعالم الإسلامي على ثلاثة ظواهر.

الظاهرة الأولى: ظاهرة الدويلات التي لم تكن تابعة لدولة الخلافة العباسية

في زمن مبكر من تاريخ الخلافة العباسية وبالتحديد سنة ٢٦١هـ -٨٧٤م استقل السامانيون عن الدولة العباسية ببلاد ما وراء النهر وخراسان هذا الأمر قلل من هيبة الخلافة العباسية. كما استطاع الغزنويون في سنة ٣٨٧هـ -٩٩٧م أن يقيموا دولة في كل من أفغانستان والبانجاب ومدوا سلطانهم إلى تركستان وطبرستان وسجستان، حيث أقاموا هناك دولة قوية لا ترتبط بالدولة العباسية. ومما لا شك فيه أسهم هذا في تقليل شأن الخلافة العباسية.

في آخر سنة ٢٩٧هـ - ٩٠٩م انتشرت الدعوة الفاطمية في اليمن والبحرين والسند والهند والمغرب العربي. وكان أن قضى عبيد الله المهدي الفاطمي على دولة الأغالبة في الغرب وأبطل الخطبة للخليفة العباسي هناك. ومن ثم أصبح للفاطميين نفوذ في المغرب والمشرق حيث تعاقب على السلطة في المشرق والمغرب فيما عرف بالخلافة الفاطمية أربع عشر خليفة حتى أسقطهم الأيوبيون في مصر، وفي ا ليمن استطاع الصليبيون إسقاط النفوذ السني لصالح الفاطميين، ولم تأت سنة ٤٥٥هـ إلا والدعوة الإسماعيلية قد عمت اليمن واستمر الحال في اليمن إلى أن قضى على النفوذ الفاطمي صلاح الدين الأيوبي، في المغرب العربي كذلك ظهرت دولة الموحدين التي قامت أساساً للقضاء على دولة المرابطين وكان ذلك عام ٥٤١هـ، واستطاع قائدها أن يهاجم الأندلس وأن يغنم منهم ويأسر، ولقد وقفت دولة الموحدين أمام أطماع الصليبيين في الأندلس ولكن ضعفت هذه الدولة وسقطت عام ٦٦٧هـ وبلغت هذه الدولة من القوة أن استنجد بها صلاح الدين في حربه ضد الصليبيين في المشرق والدارس لأحوال الخلافة العباسية في ذلك الزمان وهي الدولة المناط بها مواجهة الغزو الصليبي نجد أن جسمها كان مثقل بالجراح وأن ضعفها كان واضحاً بسبب الفرقة والانقسام الذي أوضحته السطور المتقدمة[1].

(١) بتصرف، علي عبد الحليم محمود، الغزو الصليبي والعالم الإسلامي، بدون طبعة (جدة: دار عكاظ، بدون تاريخ) ص١٥٣- ١٥٥.

الظاهرة الثانية: سيطرة بعض القواد على الخلافة العباسية:

بدأ ضعف الدولة العباسية في زمن مبكر منذ عهد الخليفة المتوكل، وكان أبرز سبب لهذا الضعف بُعد بعض الخلفاء عن أخلاقيات الإسلام والمنهج الإسلامي في القيادة وظهور بعض الفتن والبدع وطوائف المتكلمين مثل المعتزلة وغيرهم، هذه الأسباب أضعفت هيبة الخلافة ولذلك طمع المغامرين من القواد في السيطرة على الخلفاء وقد زاد خطر الأتراك في عهد المتوكل وحاول المتوكل أن يقلل من نفوذهم وأراد أن يعتمد على العرب وإبعاد الأتراك ومن جزاء هذا قامت سلسلة مؤامرات حركها الأتراك أدت إلى قتل بعض الخلفاء وتولية آخرين، وأصبح الأتراك يولون ويعزلون ويقتلون ويقررون.

وهذا الضعف أدى بدوره إلى أن تنشق بعض الدول عن الخلافة العباسية، فقد قامت دول صغيرة في بلاد فارس مثل الدولة الظاهرية والصفارية والسامانية ودولة الديالمة ودولة بني بويه.

ودولة بني بويه قويت شوكتها حتى أنهم سيطروا على الخلافة العباسية منذ عام ٣٣٤هـ حتى ٤٤٧هـ العام الذي سيطر فيه السلاجقة على الخلافة العباسية. وقد حاول الخلفاء الإصلاح على عهد البوهيين ولكن فشلوا في ذلك.

والجدير بالذكر أن السلاجقة ظهروا على مسرح الأحداث عام ٤٢٩هـ عندما استولى قائدهم على مرو حاضرة خراسان.

وقد وسعوا واستولوا على بلاد كبيرة تضم معظم فارس وبلاد ما وراء النهر. وظل قائدهم طغرليك يحكم الخلافة العباسية أكثر من سبع سنين، وثم تعاقب سلاطين السلاجقة في حكم الدولة العباسية. وقد كان مذهب السلاجقة المذهب السني ولذا نالوا رضا الخليفة. وسمى عهدهم بالعصر السلجوقي الأول. وبعد فترة نهاية حكم السلاجقة أصابهم الضعف وخلفهم الأتابكة في السيطرة على الخلافة العباسية واستقلوا ببعض الأطراف.

هذه الظاهرة توضح لنا الأحوال السياسية التي سادت بلاد العالم الإسلامي في عصر الحروب الصليبية وكيف أن الأحوال السياسية في غاية الاضطراب والانفصام مما سهل مهمة الغزوات الصليبية للعالم الإسلامي ولكن رغم ذلك

الانقسام والاضطراب استطاع المسلمون ودولهم المختلفة والمتنوعة أن يدافعوا بما استطاعوا وأن يدفعوا عن بلادهم الغزو الصليبي الذي أصابهم بضرر كبير ومكث في أرض الإسلام حوالي ٢١٠ عام واجهت هذا الغزو الصليبي الدولة الإسلامية الموجودة في ذلك الزمان. واجه الغزو الصليبي المسلمون في الأندلس والعباسيون والفاطميون والسلاجقة والأيوبيون والمماليك والأتراك والعثمانيون وقد كان للأيوبيين دور هام في جلاء الصليبيين عن العالم الإسلامي وذلك تحت قيادة صلاح الدين الأيوبي[١].

وخلفه في مقاومة الغزو الصليبي للعالم الإسلامي المماليك.

الظاهرة الثالثة: ظاهرة الحركات الدينية ذات الصبغة السياسية:

لقد كان لهذه الحركات أثر كبير في ذلك العهد وكان أثرها واضح في تمزيق العالم الإسلامي في عصر الحروب الصليبية.

نقدم دراسة مختصرة لبعض هذه الحركات. من أهم الحركات الحركة الفاطمية تلك الحركة التي قامت على المذهب الشيعي وهو مذهب مخالف لمذهب الخلافة العباسية السنية وعن هذه الحركة تفرعت كل الحركات المناهضة للدولة العباسية، وكان هناك حركة القرامطة ذات التوجهات والاعتقادات المنحرفة فظلت هذه الحركة لمدة قرنين من الزمان مصدر قلق واضطراب للعالم الإسلامي كله، عباسيين وفاطميين، وظهر الدروز وهم من غلاة الشيعة، وكان ظهورهم في أول القرن الخامس الهجري وهي حركة ذات اعتقادات باطلة مخالفة للعقيدة الإسلامية. وحركة النصيرية وهم جماعة ملحدون خارجون عن الإسلام. وكثير من الحركات في ذلك الزمان منحرفة عن الجادة انتشرت في العالم الإسلامي في اليمن وفي المغرب العربي. وقد قامت في المغرب العربي دعوة المرابطين التي بدأت بروح الجهاد ولكنها في نهاية الأمر انقطعت للعبادة وعن الحياة بحجة فساد الحياة واستمرت في سنة ٤٤٥هـ -٥٤٢هـ وفي المغرب العربي

(١) انظر، علي عبد الحليم محمود، المرجع نفسه ص١٥٦-١٥٩.

قامت دولة الموحدين وقد كانت دولة الموحدين مظهراً من مظاهر انقسام المسلمين وتفتت وحدتهم الفكرية من جانب والسياسية من جانب آخر[١].

ما تقدم هي ظروف العالم الإسلامي عندما شنت أوربا غزوها الصليبي عليه، هذه الظروف ساعدت كثيراً في أن يستولي الصليبيون على كثير من البلدان الإسلامية وأن تكون للصليبيين انتصارات ولكن هذه الانتصارات تتحول إلى هزائم عندما يتوحد المسلمون وقد كان أشهر الهزائم للصليبيين عندما توحد المسلمون تحت قيادة البطل الإسلامي صلاح الدين الأيوبي وعدد من قواد المماليك ومنيت أوربا بهزيمة عندما أصبح صلاح الدين رأس الدولة الأيوبية، بل أصبح رأساً لجميع الحكام في عهده وحقق بذلك وحدة العالم الإسلامي مما كان لها أثر واضح في طرد الصليبيين عن العالم الإسلامي.

ثانياً: دور صلاح الدين الأيوبي والمماليك في هزيمة وطرد الصليبيين من ديار الإسلام

أ- دور صلاح الدين الأيوبي في هزيمة الصليبيين

ب- دور المماليك في هزيمة الصليبيين

أ- دور صلاح الدين الأيوبي في هزيمة الصليبيين

صلاح الدين الأيوبي هو يوسف بن أيوب بن شادي ١١٣٧-١١٩٣م، عاش زهاء ٥٦ عاماً، قائد وبطل مسلم ومؤسس الأسرة الأيوبية والخصم الأكبر للصليبيين. ولد في تكريت من أصل كردي وعاش ١٠ سنوات في بلاط نور الدين سلطان السلاجقة حيث عني بدراسة المذهب السني رافق الأمير شيركوه في حملات أرسلها نور الدين ضد الفاطميين بمصر (١١٦٤م - ١١٦٧م - ١١٦٨م) وجعله شيركوه نفسه وزيراً وعند موته ١١٦٩م خلفه صلاح الدين وعندما وطد صلاح الدين سلطته حذف اسم السلطان العاضد من صلاة الجمعة. وبذلك أنهى حكم الفاطميين. ومد نور الدين حملة ضد واليه القوي الذي اتهم بأنه ينوي الخروج

(١) بتصرف من: علي عبد الحليم محمود - الغزو الصليبي والعالم الإسلامي، مرجع سابق، ص١٥٩-١٦٥.

عليه، ولكن نور الدين توفى، فأعلن صلاح الدين استقلاله ونصب نفسه سلطاناً على مصر وبذلك أسس الأسرة الأيوبية ١١٧١م. وبدأ أعماله الحربية بفتح اليمن وفلسطين واستولى على دمشق والموصل وحلب ١١٧٤م، ثم أصلى الصليبيين ناراً حامية، وهزمهم في معركة حطين الفاصلة ١١٨٧م.

فسقطت بيت المقدس في يده، ثم واجه ريتشارد الأول (قلب الأسد) ملك انجلترا في الحرب الصليبية ودار القتال سجالاً بين الفريقين انتهى بصلح الرملة ١١٩٢م، الذي بمقتضاه لم يبق في أيدي الصليبيين سوى شريط الساحل يمتد بين صور ويافا.

ذاع صيت صلاح الدين بين المسيحيين كمحارب شهم كريم الخلق أبي النفس ولم يكن مقاتلاً مغواراً فحسب بل كان رجلاً مثقفاً يحب العلم ويشجع العلماء، عمر المساجد وأصلح الري وبني القلعة وبعض أسوار القاهرة. مات بدمشق ودفن بها[1].

هذا تعريف على وجه الاختصار للبطل صلاح الدين الأيوبي، وسوف يجد القارئ في الصفحات التالية توضيحاً وشرحاً لهذا المجمل وسيجد ملخصاً لأعمال صلاح الدين ودوره في طرد الصليبيين من العالم الإسلامي. على الرغم من الظروف السيئة التي أحاطت بالعالم الإسلامي نتيجة مباشرة للبعد عن الأخذ الكامل بمنهج الإسلام في الحياة. فإن الدولة الإسلامية بما بقي فيها من اعتزاز بمنهج دينها، لم تستلم لهذا الغزو الصليبي طالما فيها بقية من القدرة على المقاومة. ولعل الميدان الوحيد الذي كسب فيه الصليبيون الجولة الأخيرة في صراعهم مع المسلمين هو ميدان الأندلس المسلمة، وربما كان لذلك من الأسباب ما جعل المسلمين يخسرون هذه المعركة خسارة مطلقة. والحديث عن مواجهة المسلمين للصليبيين في فترة الحروب الصليبية المعروفة سيتناول دولاً إسلامية عديدة مثل الفاطميين في مصر والشام والسلاجقة في الشام والعراق وفارس ومن ورائهم خلفاء بني العباس ثم الأيوبيين والمماليك في مصر والشام حيث انتهى الوجود

(١) محمد شفيق غربال، الموسوعة العربية الميسرة، مرجع سابق، ص١١٢٨.

العسكري في العالم الإسلامي انتهاءاً مطلقاً على أيدي المماليك، في نهاية القرن السابع الهجري[١].

لقد كان للأيوبيين ونجلهم صلاح الدين الأيوبي والمماليك دوراً بارزاً في تصفية الوجود الصليبي وهزيمته وطرده نهائياً من العالم الإسلامي. والحق إن طرد الصليبيين من العالم الإسلامي والشرق الإسلامي كله كان عمل صلاح الدين أولاً وأخيراً. حتى ذلك الانتصار الذي حققه السلطان الأشرف قلاوون (مملوكي) فأخرج الصليبيين من عكا كان الفضل فيه لصلاح الدين ولأعماله الجليلة التي قضت على الوجود الصليبي في العالم الإسلامي[٢].

سوف يركز الباحث على أهم دورين في نهاية الصليبيين دور الأيوبيين ودور المماليك والسبب أن صلاح الدين حقق انتصارات لم يحققها غيره من حكام المسلمين الذين تصدوا للغزو الصليبي. وقد اهتدى لعوامل النصر وهما توحيد صفوف المسلمين ورفع راية الجهاد في سبيل الله. وقد مهد عمل صلاح الدين لعمل المماليك في استكمال هزيمة الصليبيين نهائياً وطردهم من الشرق الإسلامي.

في عام ٥٨٢هـ كان صلاح الدين قد انتهى من تأمين حدود دولته المترامية الأطراف والتي اتسعت حتى أصبحت تمتد من بلاد النوبة واليمن جنوباً إلى بلاد الأرمن شمالاً ومن برقة غرباً إلى الموصل وبلاد الجزيرة شرقا ويدعم هذا الملك المتحد اعتراف الخليفة العباسي ورضي بغداد عنه[٣].

وضع صلاح الدين نظاماً دقيقاً يكفل جعل العدو باستمرار تحت المراقبة وقد شمل هذا النظام ما يلي:

١- جمع المعلومات عن العدو بصفة مستمرة وذلك بواسطة إنشاء شبكة قوية من المواقع المتتالية بعضها خلف بعض. وكان الاتصال بينهما يتم بواسطة مجموعة

---

(١) علي عبد الحليم محمود، مرجع سابق، ص١٦٦.

(٢) علي عبد الحليم محمود الغزو الصليبي والعالم الإسلامي، مرجع سابق، ص١٩٨.

(٣) نعمان الطيب، منهج صلاح الدين الأيوبي في الحكم والقيادة، الطبعة الأولى (القاهرة: مكتبة الحسين الإسلامية، ١٩٩١م) ص٢١٤.

من الجياد السريعة أو بواسطة الحمام، كما أنه أحياناً يداوم الاتصال بالعدو بين الفينة والأخرى لجس نبضه والتعرف على حقيقته.

٢- شحذ رجاله وإكسابهم المهارة الحربية وتدريبهم على القتال بالمعدات الحديثة وبأسلوب العدو نفسه.

٣- مداومته الحصول على المبادأة وحرمان العدو منها.

٤- مضايقة العدو بصفة مستمرة وبعثرة قواته في مختلف الجهات[١].

التقى صلاح الدين بالصليبيين في معركة فاصلة هي معركة حطين، ولأن معركة حطين تعتبر حرباً دينية جديدة أخذت تجتاح مملكة الصليبيين الذين فقدوا الروح الصليبية. بينما صار لجيش صلاح الدين سنة ٨٥٣هـ من الروح والحماس الديني مثل ما كان للصليبيين سنة ٤٩١هـ، أي أن الأوضاع تغيرت والروح الدينية هي التي تقود إلى النصر دائماً. لأنها أقوى حافز تدفع المقاتل لأن ينزل إلى الميدان في المعركة وروحه على كفه مضحياً بها في سبيل الدفاع عن دينه ووطنه باقتناع ورضى تام. وبانتصار المسلمين في هذه الموقعة وضع الحد الفاصل الذي انحسر عنده المد الصليبي إلى البحر المتوسط وأسدل الستار نهائياً على مطامع أوربا في الأراضي المقدسة. وانفكت الرابطة بين الصليبيين وأصبحوا بدون قيادة صحيحة تجمع قواهم، وفتحت هذه الموقعة أمام صلاح الدين أبواب المدن الصليبية للاستيلاء عليها. كما أن معركة قرون حماة كفلت لصلاح الدين السيطرة على الشام حيث توحدت القوى الإسلامية فكذلك موقعة حطين كفلت له السيطرة على فلسطين وبيت المقدس لتصفية النفوذ الصليبي[٢].

قضى صلاح الدين الأيوبي على معظم الأمارات التي أقامها الصليبيون في الشام وعلى ساحل البحر المتوسط وفلسطين وسقطت في يده مملكة بيت المقدس.

وكان لسقوط بيت المقدس في يد صلاح الدين قد أحدث ضجة كبيرة في

---

(١) نعمان الطيب، منهج صلاح الدين الأيوبي، مرجع سابق، ص٢١٤.

(٢) نعمان الطيب، منهج صلاح الدين، مرجع سابق، ص٢٢٢، ٢٢٣.

أوربا حتى أن بعض الرهبان والقساوسة الذين كانوا بالشام ومنهم وليم كبير أساقفة صور ساروا إلى أوربا يرددون في الاجتماعات والمؤتمرات التي تعقد في إيطاليا وفرنسا وألمانيا قصة سقوط بيت المقدس. وكانت معهم لوحة كبيرة تمثل القبر المقدس وقد لوثته جيوش المسلمين والمسيح يضربه بني العرب[١]. (كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً).

وبسقوط حطين التي كانت في يد الصليبيين وضعت خطوط النهاية في حياتهم في الشرق الإسلامي فأخذ صلاح الدين يفتح البلاد والقلاع دون مقاومة. وكان يعامل الناس بالحسنى والتسامح. فقد استولى على عكا بعد أن استسلم الصليبيون فيها بقيادة جوسلين وعاملهم صلاح الدين معاملة حسنة، كما استولى على جنين وبيروت وجبيل ومعظم القلاع والمراكز الساحلية في جنوبي بلاد الشام، كما استولى على الرملة والدوارم والمرملة والنطرون وبيت جيرين.. الخ. واستولى على عسقلان في أوائل سبتمبر ١١٨٧م. وبعد ذلك لم يبق أمام صلاح الدين إلا بيت المقدس وقد هاجمها صلاح الدين في شهر رجب ٥٨٣هـ واشتد هجومه، فلما رأى الصليبيين استسلموا دون شروط وتسلمها صلاح الدين يوم الجمعة ٢٧ رجب ٥٨٣هـ، وهي ذكرى الإسراء والمعراج وما لبث صلاح الدين أن لبى نداء ربه سنة ٥٨٩هـ في شهر ربيع الأول. ودفن أوائل مارس ١١٩٣م وانقسم البيت الأيوبي بين أبنائه وأخوته ولم يلق الصليبيون من الأيوبيين هزائم كالتي أوقعها صلاح الدين وبعد أن تفككت الأسرة الأيوبية ذات الصفحات الناصعة في محاربة الصليبيين تسلم الراية قواد بني أيوب وهم المماليك وقادوا حركة الجهاد في سبيل الله وعملوا على طرد ما بقي من الصليبيين نهائياً من الشرق الإسلامي[٢].

لقد نال صلاح الدين هذه الانتصارات على الصليبيين وذلك عندما وجه عنايته إلى إصلاح أحوال مصر الداخلية وإزالة العقبات التي كانت تمس أمن مصر وشعبها ولم يقتصر على هذا فحسب بل هداه تفكيره السديد وحرصه

---

(١) نعمان الطيب، منهج صلاح الدين، مرجع سابق، ص٢٨٧.

(٢) علي عبد الحليم محمود، الغزو الصليبي والعالم الإسلامي، مرجع سابق، ص٢٠٥-٢٠٦.

الشديد على سلامة مصر من كل النواحي أن يبعث بقواته جنوباً وشرقاً وغرباً ليؤمن حدود مصر من الخارج وليمنع تسرب العابثين والذين ينفذون إلى مصر من العراق الصحراوية أو البحرية المحيطة بها وهدفهم القضاء على سلامة الرعية أو إثارة الفتن والقلاقل بينهم ومصر يحدها من الشرق والشمال البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط وسواحلها طويلة ويحدها من الجنوب والغرب صحاري واسعة مترامية الأطراف، وهذه الحدود كلها تستدعي مراعاة اليقظة التامة والحراسة الشديدة، لذلك رأى صلاح الدين أن يؤمن حدود مصر بتوسيعها وضم الجهات المجاورة لها ففي الجنوب ضم بلاد النوبة وفي الشرق ضم بلاد اليمن والحجاز وفي الغرب ضم بلاد المغرب وهذه البلاد كلها إسلامية. واندماجها مع مصر يعتبر خطوة كبيرة في سبيل توحيد القوى الإسلامية في المنطقة الذي سعى صلاح الدين إليه وكان يحرص على تحقيقه لكي يتفرغ بعد ذلك للجهاد ضد الصليبيين، وهم العدو الأول للأمة الإسلامية[١].

توفي صلاح الدين عام ٥٨٩هـ -١١٩٣م، وبموته انطوت صفحة ناصعة من صفحات الكفاح والنضال المسلم ضد الغزاة الصليبيين وعم الحزن بلاد العالم الإسلامي بفقد هذا البطل المغوار الذي دوخ الصليبيين ووحد الأمة الإسلامية وأعاد مجد الإسلام وأسهم إسهاماً واضحاً وتاريخياً في تطهير أرض المسلمين من عبث النصارى، وتسلم راية الجهاد بعد صلاح الدين قواد المماليك في مصر وعادت الراية من جديد إلى الارتفاع حتى بلغت الذروة وكانت الوحدة بين مصر والشام من جديد وكان الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين من أجل أبهى صور الجهاد حتى تم التحرر والتطهير الشامل بعون الله تعالى وفضله. فسقطت الحروب الصليبية وسقط شعارها معها وظلت راية الوحدة والجهاد مرفوعة خفاقة بأيدي المماليك لمجابهة كل من يتجرأ على الأمة الإسلامية وديارها[٢].

---

(١) نعمان الطيب، منهج صلاح الدين في الحكم والقيادة، مرجع سابق، ص٢٣١

(٢) مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد المماليك، الطبعة الأولى (عمان: دار النفائس، ١٩٩٥م)

ب- دور المماليك في هزيمة وطرد الصليبيين:

المماليك من جهة اللغة جمع مملوك وهو العبد الذي لا يملك حريته، بل كان ملكاً لغيره، وتطلق دولة المماليك أو سلطة المماليك على المماليك الذين اشتراهم الملك الصالح نجم الدين أيوب ليكونوا له جنداً وحرساً لأنه لم يكن محبوباً من "الأكراد" جيش الدول الأيوبية وعمادها. أراد الملك الصالح الإكثار من العصابة لحماية الدولة وإقامة رسوم الملك، وأن ذلك يحصل باتخاذ المماليك والإكثار منهم وقد أخذ التجار في جلبهم إليه فاشترى منهم أعداداً. وأقام لتربيتهم أساتيذ معلمين لحرفة الجندية من الثقافة والرمي. وذلك بعد تعليمهم الآداب الدينية والخلقية إلى أن اجتمع منهم عدد جم. وهم يرجعون إلى الجيش التركي. وبنى لهم الملك الصالح قلعة وظهر منهم قواد وكان أن برز منهم سلاطين، أشهرهم المظفر قطز والظاهر بيبرس وقلاوون الصالحي وابنه الأشرف خليل. وقامت دولة للمماليك من أشهر الدول في مصر. واعتنى سلاطينها بالمساجد والمدارس. وكانت في مصر وكانت هذه الدولة ملجأ العلماء خاصة بعد سقوط بغداد في الشرق الإسلامي واستطاعوا أن يصدوا زحف المغول وجددوا الخلافة في القاهرة واستمرت الخلافة هناك إلى أن انقرضت سلطنة المماليك[١].

يعتبر عهد المماليك - من أوله على الأقل - امتداداً للعهد الأيوبي ولاسيما فيما يتعلق بالحرب ضد الصليبيين ذلك أن أوائل ملوك المماليك أوصلوا الحرب ضد الصليبيين إلى نهايتها المحتومة. وهي تطهيرهم بلاد الشام من أرجاسهم. ذلك أن أوربا الصليبية لم تعد قادرة بعد هزيمة المنصورة أن تعيد الكرة على مصر وبأعداد غفيرة، وكما وأن أوائل ملوك الممالك كالظاهر بيبرس والملك المنصور قلاوون كانوا محاربين من نوع نادر فهم الذين أعادوا وحدة مصر وبلاد الشام. وهم الذين حطموا أسطورة الجيش المغولي الذي لا يقهر فقهروه أكثر من مرة وصبوا الهزائم المتوالية على رؤوس أباطرة المغول. وحاربوا الصليبيين في بلاد الشام

(١) محمد العروسي المطوي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، بدون طبعة (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٢م) ص ص١٢٤-١٢٥.

وانتزعوا معاقلهم واحداً بعد واحد حتى أجلوهم عن سوريا عام ١٢٩١م كما حاربوا الثوار وقضوا عليهم إلى جانب حربهم السلاجقة الروم وللبيزنطيين وهزيمتهم إياهم أكثر من مرة والواقع أثبت أن الملك الظاهر بيبرس بأنه قائد محارب من أرفع طراز. وقد ميز نفسه عندما كان ضابطاً وقائداً للفرسان في زمن أواخر الأيوبيين وأما في زمن السلطان قطز فقد كان هو الروح المحركة والعقل المفكر وراء كل ما تم إنجازه ضد المغول بخاصة ولاسيما في معركة عين جالوت الحاسمة ولما أصبح الظاهر بيبرس سلطاناً انضاف إلى خلاله السابقة صفة الحكم والقيادة وهي خلال كان هو من أجدر الناس بها، وهو الذي يعود له الفضل الأكبر، في زمن المماليك في تحطيم القوة الصليبية في سوريا. وعلى الرغم من أن بقاء الصليبيين استمر في بلاد الشام فترة ليست بقصيرة بعد وفاته إلا أن شرف إنهاء الحكم الصليبي يعود له ولحروبه البطولية التي حكمت معاقل الفرنج معقلاً معقلاً. وقد بلغ من عجز حكام سوريا الفرنج وضعفهم أنهم أصبحوا يطلبون عقد الهدن مع الظاهر بيبرس. بل وقد أصبح هو نفسه حكماً بينهم كما حدث لما أحتل ملك قبرص وحاكم عكا على صحابة بيروت وجعلها تترك مملكتها، وتذهب إلى قبرص وبقيت بيروت بدون حاكم، فأرسل السلطان إلى صاحب عكا يقول: هذه الملكة بيني وبينها هدنة، وما سافر زوجها حتى أودعها عند جاهي، وعادتها إذا سافرت تستودعني بلادها. وفي هذه المرة ما سيرت لي رسولاً، ولابد من حضورها وإن تتوجه رسلي وتشاهدها وإلا أنا أبق ببلادها. ولكي يتمكن السلطان من تنفيذ خططه في تطهير بلاد الشام من الفرنج لم يكتف بالاستعداد الحربي وحده، وإنما لجأ إلى الدبلوماسية فحالف بعض الصليبيين لفترة، ليأمن جانبهم، وتفرغ للآخرين، كما عقد عدة هدن مع بيروت، ومع الاستبارية في حصن الأكراد ومع غيرها، وهاجم عندئذ بقية المعاقل واحتلها كما فعل لما هاجم صفد والشقيف واللاذقية ويافا وأنطاكية وفتحها كلها[١].

(١) محمد ماهر حماده، وثائق الحروب الصليبية والغزو الصليبي للعالم الإسلامي، الطبعة الثانية، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٢م) ص ص٥٧ -٥٩.

ولما آلت سلطنة المماليك بمصر إلى سيف الدين قلاوون ٦٧٨هـ -١٢٧٩م. بادر بعقد هدنة مع بقايا الصليبيين. دفعه إلى ذلك عزم التتار على مهاجمة المماليك ومخالفة بعض أمراء الشام عنه، واستعد السلطان قلاوون لملاقاة التتار الذين تقدموا إلى البلاد الشامية وجرت بينه وبينهم معركة عظيمة قرب حمص ٦٨٠هـ -١٢١٢م انتصر فيها قلاوون انتصاراً باهراً وطاردهم إلى أعالي الفرات. ثم وقع الصلح لحقن الدماء بين السلطان قلاوون وملك التتار وما أن أمن السلطان قلاوون جانب التتار حتى التفت إلى الصليبيين فاستولى على المرقب ٦٨٤هـ -١٢٨٥م وسنة ٦٨٨هـ استولى على طرابلس حيث هدمها وأقام مدينة باسمها. ولم يبق للصليبيين إلا عكا وما حولها. واستعد قلاوون لحصار عكا ولكن وافاه الأجل سنة ٦٨٩هـ وخلفه ابنه الأشرف خليل وسجل عهده نهاية الصليبيين. إذ هاجم الأشرف عكا واستولى عليها وذلك بعد حشد كبير وكان سقوطها عام ٦٩٠هـ -١٢٩١م. وبنهاية عكا وما حولها كانت هذه الجولة الأخيرة في صراع استمر قرنين من الزمان ٤٩٠هـ -٦٨٠هـ. كان في هذه الفترة اتصال بين الغرب النصراني والشرق الإسلامي وكل منهما أثر في الآخر. وقد استفادت المسيحية من الاحتكاك بالإسلام فائدة كبيرة كان أثرها واضحاً في النهضة الحديثة في أوربا وخروجها من الجهالة إلى الحضارة[١].

وهكذا واجه المماليك الصليبيين وقضوا عليهم وعلى وجودهم في العالم الإسلامي، غير أن دولة المماليك تركت للصليبيين فلول وبقايا تكفلت الدولة العثمانية بالقضاء عليها.

وبأعمال المماليك دالت دولة الصليبيين نهائياً كما وضح من الحديث المتقدم وتم إخراج الغزاة من بلاد الإسلام إلى غير رجعة وأصبحت بلاد الشام كلها من أقصى شمالها إلى أقصى جنوبها عند غزة لا يعيش فيها دخيل غاصب ولا صليبي حاقد يضمر الشر للإسلام والمسلمين[٢].

---

(١) محمد العروسي المطوي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، مرجع سابق، ص ص ١٣١-١٣٣.

(٢) علي عبد الحليم محمود، الغزو الصليبي، والعالم الإسلامي، ص ص٢١١-٢١٣، مرجع سابق.

كان هذا النصر بسبب التوكل على الله وتنقية العقائد وإخلاص النية والتوحيد والعزم على جهاد الصليبيين. وكذلك كان للقواد الأشاوس من الأيوبيين والمماليك وشجاعتهم وقيادتهم الحكيمة أكبر الأثر في أن تنتصر الأمة الإسلامية في ذلك الزمان بعد أن عاش الغزاة في العالم الإسلامي زهاء قرنين وهذا كذلك يدل على أن الأمة الإسلامية متى ما رجعت إلى أصولها الفكرية في الكتاب والسنة يمكنها أن تصد الأعداء. والمسلمون لا يقاتلون الأعداء بالعدد والعتاد وإنما يقاتلونهم بهذا الدين. وفي هذا العصر حاقت بالأمة الإسلامية هزائم لا تزال ماثلة فلا مخرج منها إلا الرجوع إلى الجذور من كتاب وسنة وعندها سيكون النصر حليف الأمة الإسلامية كما كان من قبل ولا شك أن في التاريخ عظات وعبر بل والتاريخ هو الحافز للجيل الحالي في القرن الحالي أن يهتدي بما اهتدى به الأوائل حتى طردوا الغزاة الصليبيين ولاسيما وأن الصليبيين عادوا أدراجهم تدفعهم نفس الأسباب من حقد قديم وطمع في خيرات الشرق الإسلامي. إذ أنهم في حروبهم الأولى ذكروا أن هذه البلاد تفيض لبناً وعسلاً. وهي إشارة إلى ثروات العالم الإسلامي بصفة خاصة والشرق بصفة عامة. وأصبحت الآن هذه البلاد تفيض بترولاً. والهجمة الصليبية المعاصرة لها أهداف في تدمير عقيدة الإسلام والاستيلاء على ثروات العالم الإسلامي.

ثالثاً: نتائج الحروب الصليبية على العالم الإسلامي:

لابد أن تترك الحروب الصليبية التي استمرت قرنين من الزمان لابد أن تترك آثاراً ونتائج على العالم وهي نتائج واضحة وآثاراً واضحة كذلك واضحة للعيان. نلاحظ هذه النتائج في مجالات مختلفة. فهناك نتائج في السياسة وأخرى في الاجتماع والاقتصاد بل تصل النتائج والآثار إلى الفكر. وقد كان من هذه النتائج الإيجابي والسلبي وكلاهما كان واضحاً في أثناء الحروب الصليبية وبعدها. يرى الدكتور علي عبد الحليم في كتابه ((الغزو الصليبي والعالم الإسلامي)) أن الآثار كانت في الاجتماع والسياسة والاقتصاد والفكر. وكما أن الحروب الصليبية كان لها أثر في العالم الإسلامي فكذلك كان لها أثر في الجانب الأوروبي. غير أن الذي يعنينا في هذه الدراسة أثرها ونتائجها على العالم الإسلامي. لقد كان

العالم الإسلامي في عصر الحروب الصليبية يعيش فرقة وانقسام سياسي. وكانت الأمة آنذاك في حالة تمزق كانت هذه عوامل مكنت العدو المهاجم من أن يقيم على الأرض الإسلامية استمر بعضها أكثر من قرن وعاش بعضها قرنين كاملين. وقد كان في هذا العصر العالم الإسلامي على جانب من التحضر. وبسبب هذه الحروب تعرف العالم الإسلامي والعالم الأوروبي على بعضهما وقامت بينهما صلات. وأن كانت هذه الصلات التي أوجدتها الحروب الصليبية. كان تنقل الأفراد بين العالم الأوروبي والعالم الإسلامي. مستمراً في مجال التجارة ورحلات الحج لبيت المقدس. ولا ننسى الوجود الإسلامي في الأندلس. الحروب الصليبية غطت العالم الإسلامي آن ذاك إذ شملت كل من آسيا الصغرى والشام والعراق ومصر. بل وصلت بعض هجماتها إلى الحجاز عبر الأردن وأرادت أن تهدد الحرمين الشريفين. وهاجمت تونس والمغرب والأندلس. ومن باب أولى جزر البحر المتوسط. كانت آثار الحروب الصليبية واضحة كما تقدم في الاجتماع والسياسة والاقتصاد وفي إذكاء العواطف الدينية.

في الجانب الاجتماعي كان لهزيمة الصليبيين للمسلمين أثر واضح إذ أحس المسلمين بالعجز والكسل وكان في نفوس بعضهم اقتناع بأن الانتصار على الصليبيين غير ممكن. هذا الإحساس أدى إلى أن يعتقد بعض المسلمين أن جهاد النصارى يكون بالقلم واللسان وهذا الضرب من ضروب الجهاد يغني عن القوة والسيف والسنان. حتى قال بعضهم أن جهاد القلم واللسان لا يقل عن جهادهم بالسيف والسنان. هذا الفهم كان أول سلبية على المجتمع المسلم. بل لغي مسلمة عند أهل العلم تقول أن جهاد العدو الذي اغتصب شبراً من الأرض الخاصة بالمسلمين. فجهاده فرض عين وبسبب هذا الفهم تنازل بعض المسلمين للصليبيين عن ميدان الجهاد بالسيف. وقد قاد هذا الفهم علماء كبار في ذلك الزمان ونجد ابن تيمية قد حمل على الذين تركوا الجهاد حتى قال والعاجز عن الجهاد بنفسه يجب عليه بماله واستدل على ذلك. وقد كانت الدعوة إلى الزهد تزهد الناس في الجهاد. وهي الأخرى جاءت من علماء في ذلك الزمان وهي دعوة أصابت المسلمين بأضرار كثيرة. حتى اكتفى بعض العلماء بالتأليف وكتابة الرسائل والكتب وآخرون لجأوا إلى نظم الشعر والقصائد النبوية يمدحون بها رسول الله ﷺ. ومن

الظواهر الاجتماعية التي استحدثت في عهد الحروب الصليبية قيام بعض المدن التي لم تكن موجودة من قبل.

ومن التأثيرات الاقتصادية ما يمكن أن نلمسه في جانبين إيجابي وسلبي. فمثلاً في الجانب الإيجابي انتعشت التجارة بين العالمين الأوروبي والإسلامي وتم نقل حاصلات الشرق إلى أوربا.

وبالتالي قام نشاط تجاري ضخم بين الشرق والغرب. بل عبرت حاصلات الشرق الأقصى الشرق الإسلامي إلى أوربا. غير أن السنين الأخيرة التي شهدت ظهور المغول حولت طريق التجارة ليمر إلى طريق آخر هو طريق الصين. ولأن مصر كانت بعيدة عن الخطر المغولي فقد ظلت التجارة في مسالكها النشاط الواسع في عصر الحروب الصليبية عاد بفوائد اقتصادية على بلدان الشرق الإسلامي[١].

في الناحية الاقتصادية كان هناك سلبيات عديدة، لقد عانت بلاد المسلمين من تخريب بعض المدن وتعطلت الصناعات وضاعت كثير من الحاصلات. وأختل الأمن بسبب أن الدولة مشغولة بالحرب. وارتفعت الأسعار وأضرت بالمواطن. وساءت الأحوال الاقتصادية.

وقد كان التأثير من الناحية السياسية كبيراً. إذ أصبحت الحروب الصليبية أحداث وتغيرات سياسية كبيرة. وكانت النتائج والآثار تتمثل فيما يلي:

١- اتحاد المسلمين وجمع كلمتهم تحت قيادات مخلصة.

٢- إضعاف الدولة الرومانية - بيزنطة - مما أدى إلى الاستيلاء عليها نهائياً من قبل المسلمين بعد الحروب الصليبية ومعلوم مما تقدم أن العالم الإسلامي في ذلك الزمان يعيش أسوأ فترات حياته من الفرقة والتشتت والتفكك وتنازع الأمراء في الشام وفي فارس وفي مصر.

كان العالم الإسلامي يعاني من الفرقة في فترة الحروب الصليبية ويعاني من

---

(١) علي عبد الحليم محمود، الغزو الصليبي والعالم الإسلامي، بدون طبعة (جدة: دار عكاظ، بدون تاريخ ص٢٢٣ - ٢٣٣ بتصرف.

الانقسام وعاش ظروف اضطراب مما سهل مهمة الصليبيين في الاستيلاء على أجزاء من الشرق الإسلامي، وأسسوا ممالك.

هذا الأمر دعا المخلصين من القادة المسلمين أن يعملوا سريعاً لتوحيد العالم الإسلامي حتى يقفوا صفاً ضد العدوان الصليبي. وقد قاد هذا الأمر والجهاد قواد أبطال هم عماد الدين زنكي ونور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي - مهدوا الطريق لطرد الصليبيين من العالم الإسلامي بل حققوا انتصارات واضحة على الصليبيين. وكان آخرهم صلاح الدين الذي انتصر انتصاراً ساحقاً في حطين عام ١١٨٧م وخلف بني أيوب المماليك وكان أن انتصروا هم كذلك على الصليبيين. من الآثار الهامة للحروب الصليبية جهد صلاح الدين في توحيد المسلمين ورفع راية الجهاد في سبيل الله.

الجانب الثاني لأثر الحروب الصليبية التي كانت تقف سداً في وجه الفتوح الإسلامية. تحركت أطماع الكاثوليك وكانوا أخطر على الدولة الرومانية من السلاجقة المسلمين، بل أقاموا ممالك مناوية للدولة البيزنطية. وكان هناك صراع بين الصليبيين والدولة البيزنطية. وقد قضى الصليبيون على الدولة البيزنطية وأقاموا دولة بدلها استمرت من ١٢٠٤هـ-١٢٦١م. وهذا الأمر أضعف أمر الصليبيين في العالم الإسلامي[١].

وقد كان من نتائج الحروب الصليبية كذلك "إذكاء العواطف الدينية" وهو أثر واضح لدى المسلمين. وقد ولد هذا الإذكاء ضراوة الصليبيين التي واجهوا بها المسلمين في أشكال كثيرة من أشكال التعامل في كل بلد حلوا فيها. إذ ما رسوا القتل والوحشية والقسوة. هذه المعاملة أعادت المسلمين إلى التمسك بدينهم.

هذه المعاملة أيقظت في نفوس المسلمين الحماس ووجدوا القرآن والحديث يدفعهم إلى الجهاد. وبرزت شخصيات إسلامية قادت الجهاد في العالم الإسلامي. فبرز اسم عماد الدين زنكي وولده نور الدين. وصلاح الدين الأيوبي الذي هزم الصليبيين في حطين كما تقدم. واستعاد صلاح الدين بيت المقدس ولم يركن

---

(١) علي عبد الحليم محمود، المرجع نفسه، ص٢٣٢-٢٣٩ بتصرف.

صلاح الدين إلى هذا بل تطلع إلى أن يتابع الصليبيين على الساحل. وقد خلف صلاح الدين المماليك وكانوا قواداً للشعوب الإسلامية في الجهاد الإسلامي. ظهر من هؤلاء قواد عظام أخرجوا الصليبيين من آخر المعاقل التي كانت في أيديهم: "عكّا" من آثار الحروب الصليبية أن كره المسلمون النصارى الذين يقيمون في بلاد الإسلام. كما كرهوا اليهود الذين وقفوا مع النصارى ضد الإسلام والمسلمين. ومن الآثار أن نشطت حركة التأليف من قبل العلماء المسلمين توضح الصليبية والديانة النصرانية. نذكر من ذلك كتاب ابن القيم الجوزية الذي ألف كتاب سماه هداية الحيارى من اليهود والنصارى. شرح فيه ما في اليهودية من باطل. وألف شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم - ابن تيمية - كتابه الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، وغيرها من الكتب التي كتبت استجابة للعاطفة التي أيقظتها الحروب الصليبية.

هذه الدراسة توضح الحال الذي أصبح عليه العالم الإسلامي وقد استعرضت فيه ما تركته الحروب الصليبية على العالم الإسلامي من نتائج وآثار شملت النواحي الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وأخيراً إذكاء الروح الدينية وتعد هذه أبرز الجوانب التي أثرت فيها الحروب الصليبية في العالم الإسلامي وهذا لا يعني أننا حصرنا كل نتائج الحروب الصليبية على العالم الإسلامي. وهناك نتائج نثبتها دون أن نقدم لها شرح كما هو الحال في الآثار التي تقدمت.

لقد تركت الحروب الصليبية آثاراً في العالم الإسلامي نذكر منها:

١- في العادات والتقاليد.
٢- في مبدأ توريث الإقطاع.
٣- في رباطات الصوفيين وتكاياهم
٤- انتشار الرقيق والاتجار فيه وكل من انتشار الرقيق والاتجار فيه ونظام الإقطاع لا تمت إلى الإسلام بصلة ولكن أخذت طريقها إلى العالم الإسلامي.

وكان في الاثنين تقليد للأوروبيين وترتب عليهما فساد في الأخلاق والسلوك[١].

(١) علي عبد الحليم محمود، المرجع نفسه، ص٢٢٣-٢٦١ بتصرف.